

الفصل الثانى عشر

فى أشعار المفلوكين ومن فى معناهم من مقاصد شتى وبيان أن الحامل عليها إنما هو الفلاكة

اعلم أن الفلاكة إذا استولت على شخص سلبته القدرة على الأفعال انتقل إلى الاسترواح والتنفس بالأقوال وذلك لما أن فى الكلام راحة وفرجاً وتنقيصاً من ألم الباطن، ولذلك قلما يطبق كتمان الأسرار إلا الواحد الفرد، وكذلك أيضاً قلما يطبق الإنسان استدامة أقوال تخالف ما فى باطنه بل لا بد له من فلتات مطابقة لما فى باطنه لما أن النفس بطبعها تطمح إلى طلب الراحة والاستلذاذ بحسب المقدور وإذا اتضح أن فى الأقوال تنفساً وراحة ولذة وتنقيصاً من آلام الباطن وضحت الحكمة فى انتصاب المفلوكين خطباء وشعراء وحكماء فمرة يسلون أنفسهم بترجيح الكمالات النفسانية على الكمالات المادية بالأدلة الخطابية والتشبيهات الشعرية ومرة يذكرون عوارضهم اللازمة بمقتضى الفلاكة ويصوغون عنها أعداراً وحكمة وتشبيهات رائقة وكلمات فائقة تنقيصاً من قبح صورتها وليشغلوا الناس بما أوردوه فيها من محاسن الكلام عن الفكرة فى صورتها الشنيعة - ومرة يسابقون إلى ذكر نقائصهم ويجعلونها رقة أدبية أو نكتة شعرية أو كلمة هزلية قبل أن يذكرها غيرهم عنهم ليصرفوا الناس عن الاشتغال بها لأن النفوس تكره المعاد ولذلك قيل فى الأمثال أقبح من معاد ولا يثقل عليه كلامه ككلام غيره - حكى أن الأخفش الصغير كان يحفظ الأهاجى التى هجاه بها ابن الرومى ويوردها فى جملة ما يورده والحكمة فيه ما ذكرته لا ما ذكره ابن خلكان فى تاريخه من أنه كان يقول أنوّه بذكرى بها فإن ذلك أن قاله الأخفش فقوله غطاء على المعنى الحقيقى ولذلك أيضاً يذكرون الأسفار ويغرون بها مرة وينهون عنها أخرى فالإغراء لما قدمته

في الفصل الرابع والنهى يكون حيرة ودهشاً ولذلك أيضاً يغرون بتطلب المجد والثروة تارة ويأمرون بالقناعة أخرى قلقاً واضطراباً ويذمون الأيام ويتضجرون ويتململون ويستعتبون ويشعرون وهم لا يشعرون ويتفتنون وهم يفتنون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً إلا إنهم هم الخاسرون وتلطفون وهم يستقلون ويتعدرون ولكن لا يعذرون أم تسألهم خرجاً فهم من مغرم مشقلون فإننا لله وإننا إليه راجعون، والأغنياء عن ذلك كله بمعزل وعن العناء فيه بألف منزل قد أغناهم الفعل عن القول والفضل عن الفضول والأعذار عن الاعتذار والإحسان عن صوغ اللسان وأنا أورد إن شاء الله تعالى أحاسن ما يحضرني من أشعار المفلوكين ومن في معناهم في هذه المقاصد كلها وإنما قلت أو من في معناهم دفعاً لسؤال مقدر توجيهه أن المذكور في هذا الفصل من الشعر منه ما هو من كلام الأماثل والعظماء والنبلاء فالجواب إنه وإن صدر عن عظيم أو نبيل فإنما ذكر بلسان المفلوكين وشرحا لحالهم ونيابة عنهم ورحمة عليهم أو عند عارض فلاكمة حقيقية عرضت للوجيه العظيم صيرته في حكم المفلوك بحسب تلك الحالة أو عند عارض فلاكمة حالية بحكم الوارد على القلة فإن الوارد كما هو مقرر في كتب الصوفية إذا ورد على القلب وشايعته النفس بالاستحسان والاستحلاء ولم يمانعه أكسب حالات وإذا علمت الأحوال المقتضية للأشعار الآتية والحامل عليها فهاكها غير ناس ولا غافل عما قررت في مقدمة الفصل العاشر فإنه محتاج إليها في هذا الفصل فمن ذلك قول القائل:

إلى الله أشكو جور دنياكم التي تغر الفتى حتى يوارى برمسه
فتكسبه إن أقبلت حسن غيره وتسلبه إن أدبرت حسن نفسه

ومنه:

ما تطعمت لذة العيش حتى
أى شيء أعز عندي من العذ
إنما الذل في مخالطة النا
ومنه :

صرت للبيت والكتاب جليسا
م فما ابتغى سواه أنيسا
س فدعهم وعشر عزيزاً رئيسا

تلحى على البخل الشحيح بماله
أكرم يديك عن السؤال فإنما
ولقد أضمت إلى فضل قناعتي
وأرى العدو على الخصاص شارة
وإذا امرؤ أفنى الليالي حيرة
ومنه :

أفلا تكون بماء وجهك أبخلاً
قدر الحياة أقل من أن تسألاً
وأبيت مشتملاً بها متزماً
تصف الغنى فيخالني متمولاً
وأمانياً أفنيتهن توكلأ

عجبت سعاد من ارتياحي للعلا
لا يغشني الإقتار عاراً إنني
ولربما نهض المقل بعبئته
مثل السماكين انتفاعك منهما
ولئن خفيت عن الورى وفضائلي
فالنار في أشجارها مخبوءة
ومنه :

في العدم وهو يقل غرب الجامح
رحب الذراع بكل خطب فادح
وحبا به المشرون حبو الرازح
بالأعزل المدحوض فوق الرامح
كمد الحسود ونار غيظ الكاشح
حتى يتاح لها يمين القادح

أهوى الخمول لكي أظل مرفهاً
إن الرياح إذا عصفت لواقحا

مما يعانينه بنو الأزمان
تولى الأذية شامخ الأغصان

ومنه :

حتى يزين بالذى لم يفعل
يرمى ويبخل بالذى لم يعمل

المرء يحظى ثم يعلو ذكره
وترى الشقى إذا تكامل عيبه

ومنه :

كما شغلوا عن مكسب العلم بالوفر
وصار لنا حظ من العلم والفقير

شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى
وصار لهم حظ من الجهل والغنى

ومنه :

عن الفصاحة أما راح في شمل
والترجس البابلى الغض من بصل

لا تحقرن أديباً راق رونقه
فالسكر العسلى الحلو من قصب

ومنه :

ضمر زمان بأهله جنى
أو خبث فوق كاسه طافى

ينجد بي تارة ويتهم بي
حتى كأنى قذاة مقلته

ومنه :

وما علموا أن الخضوع هو الفقر
على الغنى نفسى الأبية والدهر
مواقف خير من وقوفى بها العسر

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى
وبينى وبين المال شتان حرماً
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه

ومنه :

إلا إذا دار بين الحلق والحناك

ولا تعدن رزقاً ما ظفرت به

ومنه :

لا يؤيسنك من مجد تباعده
إن القناة التي أبصرت رفعتها
وتمو وتحديث أنبويًا فأنبويًا
ومنه:

والحر من حذر الهوا
والعاجز المأيوف أق
ن يحاذر الأمر الجسيما
عند يكون إذا أقسيما
ومنه:

المرء يجمع والزمان يفرق
ولئن يعادى عاقلا خير له
وإن امرؤ لسعته أفعى مرة
لا ألفينك ثاويًا فى غربة
ما الناس إلا عاملان فعامل
والناس فى طلب المعاش وإنما
لو يرزقون على وزان عقولهم
لو سار ألف مدجج فى حاجة
ويظل يرقع والخطوب تمزق
من أن يكون له صديق أحسق
تركته حين يجرح حب يفرق
إن الغريب بكل نبل يرشق
قد مات من عطش وآخر يغرض
بالجد يرزق منهم من يرزق
ألفيت أكثر من ترى يتصدق
لم يقضها إلا الذى يتفرق

هذه الأبيات لصالح بن عبد القدوس وقوله يتصدق هو ببناء المجهول حتى يصح المعنى المراد وهو أن الغالب على الناس قلة العقل والخفة وأصله يتصدق عليه فحذف عليه ولو قرئ ببناء المعلوم لانعكس المعنى وكان معناه أن العقلاء هم الأكثر وليس بصحيح لا دراية ولا رواية وهذا الرجل اتهمه المهدي بالزندقة فأمر بحمله إليه فلما خاطبه أعجب بغزارة علمه وأدبه وحسن ثباته فأمر بإطلاقه فلما ولى رده وقال ألسن القاتل:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسه
فقال بلى وأنت لا تترك أخلاقك فأمر به فقتل سنة ١٦٧ فانظر إلى
الفلاكة قال حكمة فكانت سبباً فى قتله ومثله قول عمارة اليمنى الملقب نجم
الدين الشاعر:

هذا ابن تيمرت قد كانت بدايته كما يقول الورى لحمّاً على وضم
وكان أولى هذا الدين من رجل سعى إلى أن دعوه سيد الأمم
أراد إظهار معنى بديع مبتكر فكان سبباً فى قتله فى أحد الأقوال فى
سنة ٥٦٩ - وكنت هممت أن أضع فصلاً فى الكلمات التى كانت سبباً
للحوق بضرر عظيم لأصحابها كهاتين الحكايتين واسميتها بالفلاكة اللفظية
لتكون الفلاكة ثلاثة أنواع مالية ومعنوية ولفظية ثم بدا لى فى ذلك وخشيت
أن يصير الكتاب أدبياً لا علمياً ولنرجع إلى مقصود الفصل ومنه:

ليس الخمول بعمار على امرئ ذى جلال
قليلة القدر تخفى وتلك خير الليالى
ومنه:

يا هذه إن رحمت فى شمل فما فى ذاك عار
هذى المدام هى الحيا ة قميصها خرق وقار
ومنه:

وليس قبح المكان مما يزرى به منصبى ودينى
فالشمس علوية ومع ذا تغرب فى حمأة وطنى

ومنه :

ب بلطفه يستل ناره
والماء يثقب فى الحجارة
يطفى طويل المدح ناره
وة فى القليل من المرارة

احتل لحقدك فاللبي
امضى الحديد أرقه
والهـجـسو بيت منه لا
يخفى الكثير من الحلا

ومنه :

فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ولا غرو أن يبلى الشريف بناقص

ومنه :

كملت مس إطفاء نار بنافخ

وإنى وإعدادى لدهرى محمدا

ومنه :

فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروة
فقد كشف الإثراء عنك خلائقا

ومنه :

ورفقى فى مطالبتى رفىقى
لكنت إلى الغنى سهل طريقى

حيائى حافظ لى ماء وجهى
ولو أنى سمحت ببذل وجهى

ومنه :

فكيف ما انقلبت يوماً به انقلبوا
عليه يوماً بما لا يشتهى وثبوا

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها
يعظمون أخا الدنيا فإن وصبت

ومنه :

والدر ممازح لذاك اللفظ
لو شئت لما كنت قليل الحظ

كثروا علىّ وكبروا
ج من الصداقة يعسر
س ومحوه يتعذر
لكن ذاك يؤثر

بعييداً من ممازجة القلوب
يزين فى حضور أو مغيب
وحسن الوجه يشفع فى الذنوب

لا من يظل على ما فات مكتئباً
كل امرئ سوف يجزى بالذى كسباً
حتى يكون إلى توريطه سبباً
إذا رأى منك يوماً فرصة وثباً
من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً

طلب الحياة وبين حرص مؤمل

قالت وقد انتضت سيوف اللحظ
ذا حظك ما أنقصك قلت لها:

ومنه :

من منصفى من معشر
صادقتهم وأرى الخرو
كالخط يسهل فى الطرو
ومتى أردت كشطته

ومنه :

إذا فات الفتى شيئان أضحى
جمال الوجه أو مال عظيم
فكثر المال يشفع فى المثاوى

ومنه :

إن الغنى الذى ترضى معيشته
لا تحقرن من الأيام محتقراً
قد يحقر المرء ما يهوى فيتركه
إن العدو وإن أبدى مكاشرة
إذا وترت امرأ فاحذر مغبته

ومنه :

أتعبت نفسك بين ذلك كادح

حصلت فيه ولا وقار مبجل
أخرى ورحت عن الجميع بمعزل

أهل الفضائل محقورون بينهم
منازل الوحش في الإهمال عندهم
مقدارهم عندنا أولو دروه هم
وعندنا المتعبان العلم والعدم

أتع الرزايا من وجوه الفوائد

فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

على حالة إلا رضيت بدونها
حزينا على الدنيا رهين غبونها

يمنح حظ العاقل الجاهلا
كأنه يحسبني عاقلا

نشاطاً فذلك موت خفى

ونشرت دهرك لا خلاعة ماجن
وأضعت حظ النفس في الدنيا وفي الد

أهل المناصب في الدنيا ورفعتها
قد أنزلونا لأننا غير جنسهم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم
لهم مريحان من جهل وفرط غنى

إذا كان غير الله في عدة الفتى

إذا لم يكن عون من الله للفتى

إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن
ومن يطلب الغالى من العيش لم يزل

إني رأيت الدهر في حكمه
ومما أراني نائماً ثروة

إذا وجد الشيخ من نفسه

ومنه :

ومنه :

ومنه :

ومنه :

ومنه :

ومنه :

ألست ترى أن ضوء السراج

ومنه :

انفض يديك من الأنام فكلهم

ومنه :

انفض يديك من الزمان وخيره

ولقد صفوت فما وجدت مصافيا

ومنه :

وأخ لى تكدرت

صاحبى حين لا يرى

وإذا ما حظى به

ومنه :

إذا لم يكن صدر المجالس سيداً

وكم قائل مالى رأيتك راجلا

ومنه :

وأخ إن رام منى حاجة

وإذا ما رمت منه حاجة

يعمل الحيلة فى الرد لها

ومنه :

إذا ما مدحت الباخلين فإنما

له لهب قبل أن ينطفى

شعاً يحل وأنت عجزاً تعقد

واحذر بنيه تفرز بقلة ضيره

فى الله أصحابه ولا فى غيره

بعد صفو مشار به

فى الورى من يصاحبه

صد وازور جانبه

فلا خير فيمن صدرته المجالس

فقلت له من أجل أنك فارس

كان بالإنجاح منى واثقا

كان بالرد بصيراً حاذقا

قبل أن افرغ منها ناطقا

تذكرهم ما فى سواهم من الفضل